مجلة الآداب، م٢٩، ع٣، ص ص١٣٩-١٥٥، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٧/ ١٤٣٨هـ)

النقد الثقافي العربي: قراءة في المنجز الموريتاني

ولد متالي لمرابط أحمد محمدو

أستاذ مساعد، بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون،

جامعة حائل، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ٢٦/ ٣/ ١٤٣٧هـ، وقبل للنشر في ٦/ ٣/ ١٤٣٨هـ)

الكلمات المفتاحية : النقد الثقافي العربي، قراءة، المنجز الموريتاني.

ملخص البحث: يتقدم هذا البحث لمقاربة أبرز تطبيقات النقد الثقافي على مستوى الدراسات النقدية الموريتانية المعاصرة، من خلال نموذج الدكتور محمد ولد عبدي في دراسته (السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية: الشعر نموذجًا/ مقاربة نسقية)، راصدًا الأسس النظريّة والمنهجية التي قامت عليها تلك الدراسة، ومدى استفادتها من تطبيقات النقد الثقافي العربي المعاصر، وخصوصًا منجز الناقد السعودي الدكتور عبدالله الغذامي، الذي استفادت منه الدراسة بشكل واضح، إضافة إلى مساهمتها المهمة في مسيرة النقد الثقافي العربي المعاصر؛ خصوصًا وأنَّها كُتبت من منطقة عربية تدخل في نطاق ما يُسمَّى بالأطراف، ممَّا يعيد بقوة جدليَّة المركز والمحيط في الثقافة العربية المعاصرة.

وقد استعرض البحث أبرز النتائج التي توصلت إليها دراسة الدكتور ولد عبدي، مترسّمًا الخطوط العامة لحفرياته المعرفية والبناء النظري والمنهجي الذي اعتمدته، وما فتحته من آفاق وإشكاليات حول دراسة الشعر الموريتاني الذي اعتمده الناقد بوابة مركزيّة لمقاربة سياق الثقافة الموريتانية وأنساقها المهيمنة، كما أفصح البحث عن بعض الملاحظات والتساؤلات الموجهة إلى بعض استنتاجات الدكتور ولد عبدي ومقارباته الثقافية.

The Arab Cultural Criticism: A Reading in the Mauritanian Achievements

Ould Moutaly Lemrabott Ahmed Mohamedou
Assistant Professor, (specializing in literature and criticis , the Department of Arabic Language and Literature Faculty of Arts, University of Hail,, Saudi Arabia

(Received 26/3/1437H; Accepted for publication 6/3/1438H)

Keywords: Arab Cultural Criticism, Reading, Mauritanian Achievements**.**

Abstract: This study looks at the most prominent applications of cultural criticism at the level of contemporary Mauritanian studies, through the model of Dr. Mohamed Wald Abdi in the study named "Contexts and Formats in the Mauritanian Culture: Poetry Model / Comparative Analysis". We look at the theoretical and methodological foundations of his study and how it benefited from modern applications of Arab cultural criticism , particularly how much it benefited from the works of the Saudi critic Dr. Abdullah Alghazami. In addition, we will look at the study's contribution to the modern Arab cultural criticism considering it originates from the so-called fringes of the Arab world which restores the strongly debated issue of centre vs fringes in the contemporary Arab culture.

This research highlights the findings of Dr. Abdi's study. It looks at the general lines of his cognitive theoretical and methodological constructions. also reviewed are the new openings and prospects created as a result of his study of mainly Mauritania poetry and also the problems of this approach. Finally, this study also makes some comments and raises question about some of Dr Abdi's conclusions.

إضاءة

قليلة هي الأعمال العربية التي اهتمت بتطبيقات النقد الثقافي على المستوى العربي، وإنْ كانت هناك نماذج تعلن عن نفسها بقوة، أبرزها دراسات رائد مشروع النقد الثقافي العربي، الدكتور عبدالله الغذامي؛ وهي دراسات من ناقد متخصص مطلع على مسارات الفكر الثقافي والأدبي الغربي، ومتشبع بثقافته العربية والإسلامية حدّ الثّمالة، فضلًا عن وعيه الخاص بتجليات التراث العربي عبر مساراته التاريخية المختلفة(١). في مقابل ذلك؛ يحضر صوت نقدي موريتاني متميز حازت أعماله اهتمامًا واسعًا على المستوى العربي(٢)، وهو الناقد الدكتور محمد ولد عبدي(٣) الذي قدَّم حفريات معرفية معمّقة حول

(١) يقول الدكتور إدريس بلمليح: «إنَّ الغذامي نسيج متفرّد للحوار بين الحضارات. فهو عالمٌ تراثي ومعاصرٌ في منهجه، أصيلٌ وجريءٌ في مقارباته، يتسع صدره لكل ما هو جديد، ولا يتنازل عن ذرة من ذرّات مقومات حضارته العربية والإسلامية». انظر: (عبدالرحمن بن إسماعيل السماعيل وآخرون، ٢٠٠٢م. ص ١٦).

(٢) بدأ الاهتمام العربي بهذه الدراسة بشكل مبكر من خلال الكتابات التي نُشرت عنها في الكثير من المنابر العلمية والإعلامية، كما تجلى بصفة أكثر وضوحًا في الكتاب المشترك الذي صدر عن مجموعة من الكتاب والباحثين الكبار على المستوى العربي، والذي ناقش تجربة ولد عبدي النقدية، وهو بعنوان (مرايا الحلم والكتابة: قراءات في أعمال الدكتور محمد ولد عبدي، ط١، مراكش، المغرب، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، ٢٠١١م.)،= وهو كتاب أشرف عليه الباحث، وشارك في إنجازه نخبة من النقاد العرب، أبرزهم: كاظم جهاد، عبدالملك مرتاض، يوسف ناوري، سعيد يقطين، خالد عزب...

(٣) شاعر وكاتب وأحد أبرز النقاد الموريتانيين المعاصرين، أقام بدولة الإمارات منذ مطلع تسعينيات القرن المنصرم، حيث عمل مخططًا ثقافيًا بهيئة أبوظبي للثقافة والتراث، وقد رحل إثر وعكة صحية مفاجئة يوم: ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٤م. -رحمه الله تعالى- و كان الراحل قد تحدث في بعض المقابلات الإعلامية، منذ مدة، عن انشغاله بمشروع قرائي جديد يُسائل الثقافة الموريتانية وأطرها المعرفية بشكل أكثر عمقًا ومن بوابات معرفية أخرى غير الأدب، وهو مشروع يبدو أنَّه لم يكتمل، كما ترك مجموعة من الدراسات حول الأدب والثقافة والفكر منها: (ما بعد المليون شاعر: مدخل لقراءة الشعر الموريتاني المعاصر، ط١، الشارقة، دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٠م.)، و(تفكيكات: مقاربة نقدية لنصوص إماراتية، ط١، الإمارات، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ٢٠٠٥م.)، و(فتنة الأثر على خطى ابن بطوطة في الأناضول، ط١، الإمارات، د. ت)، إضافة إلى دراسته (السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية: الشعر نموذجًا/ مقاربة نسقية)، والتي هي في الأصل أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، من جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية، ٢٠٠٨م. وهذه الدراسة الأخيرة هي موضوع هذا البحث، حيث نسعى إلى مقاربة المنطلقات النقدية والمنهجية التي استند عليها الباحث في بنائه لمشروع نقدي يستند إلى أطروحات النقد الثقافي.

مسارات الثقافة الموريتانية قديمًا وحديثًا من بوابة الشّعر، كما سعى إلى رصد سياقات تلك الثقافة ومساءلة أنساقها المهيمنة.

ويتقدم هذا البحث لإضاءة جانب من الأسس العلمية التي شيَّد عليها ولد عبدي مشروعه لتطبيق نظريات النقد الثقافي نظريًّا ومنهجيًّا، إضافة إلى رصد علاقته بمساره الثقافي العربي المعاصر، وتحديدًا حواريته لأطروحات الناقد السعودي الدكتور عبدالله الغذامي في أعماله المعروفة التي سعى من خلالها إلى استنبات النقد الثقافي عربيًّا؛ ممَّا جعلها علامة فارقة في السياق الثقافي العربي، وقد أعلن ولد عبدي بوضوح استناده في كثير من خياراته النظرية والمنهجية إلى المنجز الغذامي، وخصوصًا دراسته (النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية).

المنجز الموريتاني

أعلن النقدُ الثقافي عن نفسه بوضوح في تطبيقات النقد الموريتاني المعاصر من خلال دراسة الدكتور محمد ولد عبدي (**السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية: الشعر نموذجًا/ مقاربة نسقية**)[1]، وهي دراسة تنطلق من صلب أطروحات النقد الثقافي بفلسفته الغربية وتستند بوضوح إلى تطبيقاته العربيّة (المنجز الغذامي تحديدًا). وقد انطلق ولد عبدي من فرضية محدّدة «تقول بالتّراسل والتّراشح والتأثير والتأثر بين السياقات والأنساق، وهي فرضية تجد اقتضاءها في كون المرجعيات والنصوص على حدٍّ سواء كثيرًا ما يدفعان بتقاليد خاصة، هي في حقيقتها أنساق وأبنية تترتب في أطرها العلاقات والأفكار السائدة، وخصائص النصوص وأساليبها وموضوعاتها، غير أنَّ تلك الأنساق سرعان ما تتصلب وترتفع إلى مستوى تجريدي يهيمن على الظواهر الاجتماعية والأدبية فيحصل انفصال بين هذه النماذج التجريدية من الأنساق وديناميات الأفعال الاجتماعية والأدبية في سياقات مخصوصة، فتضيق هذه بتلك، قبل أن يُعاد تشكيل العلاقات وفق أنساق جديدة دفعت بها سياقات جديدة كذلك» (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

على هذا الأساس كان تحديد الباحث لمفهوم السياق، منطلقًا من أنَّ «أية قراءة نسقية تطلب لنفسها الحجية، لا بدَّ لها أنْ تعي انفتاح النسق على سياق تشكله في كل أبعاده، ولا بدَّ للباحث من أجل معرفة حياة النسق وتتبع

(١) نشير هنا إلى دراسة أخرى سعت إلى تطبيق نظريات النقد الثقافي على الثقافة الموريتانية، وإنْ بشكل مختلف، وهي دراسة الدكتور محمد الأمين ولد الناتي/ الثقافة الشنقيطية: مقاربة نسقية، ط١، مركز نجيبويه =

= للمخطوطات وخدمة التراث، ٢٠١١م. وهي دراسة مختلفة من حيث الآليات وطرائق الاشتغال والمتن المتناول عن دراسة الدكتور ولد عبدي.

سيرورته وعزل خصائصه وتعيينها من عدم التقوقع في منهج أحادي النظرة، يقود إلى عمى ثقافي أكثر ممَّا يهدي إلى سواء التحليل المتبصر في فهم الظواهر الثقافية» (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

وقد وجد ولد عبدي ضالته في أطروحات النقد الثقافي مفكّكًا البنية الكلية للثقافة الموريتانية من خلال قراءته المعمقة للتاريخ الموريتاني ونظرته إليه؛ لا بوصفه سلسلة من الأحداث والوقائع والمواقف والمواقع؛ كما درجت على ذلك النظرة التقليدية للتاريخ، وإنَّما بوصفه نصوصًا متموضعةً داخل فضاء اجتماعي يستثمرها (المجتمع داخل التاريخ)، وتتموضع هي ذاتها بدورها داخله (التاريخ داخل المجتمع)، ساعيًا إلى تتبع تشكل الأنساق المعرفية وسيرورتها التي خلقتها تلك الجدلية، وجرى إنتاجها واستثمارها من قبل المجتمع الموريتاني من حيث هو مجتمع مشروط بتاريخه الاجتماعي والثقافي الخاص. (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

في ضوء ما سبق؛ كشفت حفريات الدكتور ولد عبدي عن وجود ثلاثة أنساق مركزية تحكم بنية الثقافة الموريتانية، وهي (النسق الديني)، و(النسق الاجتماعي)، و(النسق الثقافي)، وهو أمر حتّم عليه أنْ يرتدي لَبوس المؤرخ ليفصح عن تحقيب إجرائي للتاريخ الموريتاني إلى حقب ثلاث، معلنًا بحس المؤرخ الثاقب «أنَّ هذا التحقيب لا يعني البتّة وجود قطائع إبستمولوجية بين تلك الحقب، بل على العكس؛ ربما يكون أصح، حيث العلاقة بينها أشبه ما تكون بعلاقة الأجناس الأدبية بعضها ببعض، إنَّها علاقة تَرْدَاد ورنين، تنتقل بموجبه تأثيرات الحقبة السابقة إلى الحقبة اللاحقة، تمامًا كما الحال في الأنساق التي تأخذ من مرجعياتها السياقية ما كان أقدر على التحلل من سلطة الآنيّ المعيش، فتمتصُّه وتسربه في الجسد الاجتماعي والثقافي، حتى إذا ما استحال السياق ودفعت المرجعيات بتقاليدَ جديدة، وجدت الأنساق نفسها وقد تحللت ممَّا لم يعد ذا أثر في الفعل الاجتماعي والثقافي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

وبما أنَّ الأنساق المعرفية لا بدَّ لها من تحققات نصّية، ولا بدَّ للأخيرة من سياق ثقافي وأدبي فيه يكون إنتاجها وتلقيها؛ لذلك أجرى ولد عبدي تحقيبًا إجرائيًا للثقافة الموريتانية، مقسمًا إياها إلى حقبتين هما: (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

١- الثقافة الموريتانية من التأسيس إلى التأصيل.

٢- الثقافة الموريتانية من الاختراق إلى التحديث.

متتبعًا مسارات الحقبتين عبر أبرز تجلياتهما، معلنًا أنَّ خيارَه التحقيبي «ينسجم وطبيعة الزمن الثقافي الموريتاني؛ لأنَّ زمن الثقافة لا يخضع للبعد الفيزيائي في تسلسله الخطي، وإنَّما هو خاضع في الأساس لتشكل المرجعيات وتبنينها التاريخي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

وقد سعى عبر هذا الإجراء إلى الوقوف على السمات الفوقية للثقافة الموريتانية في كل حقبة، وهي سمات يُفترض أنَّها تسربت إلى النصوص على اختلاف أجناسها وتحكمت في أبنيتها الفنية والدلالية، وخصوصًا منها الخطاب الشعري. (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١). وهو الخطاب الذي عُني بتتبع مساره على مستوى الإنتاج والتلقي، مُجترحًا بعض المفاهيم والمصطلحات التي غطَّت خريطة التلقي الجمعي لهذا الخطاب، راسمًا إياها في ثلاثة محاور هي: (التّأثيم) و(التّعظيم) و(التّذميم)، متكئًا على تلك المفاهيم لمعرفة طرائق تمثيل الشعراء للشعر، وضبط علاقتهم بالشاهد الأمثل، وهي العلاقة التي تراوحت بين (المُماثلة) و(المُشابهة) و(المُخالفة)، كما اعتمدها، إضافة إلى ذلك، طريقًا للكشف عن أنماط القراءات المعاصرة التي مارسها النقاد الموريتانيون على ذلك الشعر، بوصفهم (قراء خبراء lecteurs informés)، لديهم من المرجعيات المعرفية ما يسمح لهم بالتعامل مع النصوص وَفْقَ إستراتيجيات معينة، فتوزعت قراءاتهم بين (التّحقيق) و(التّعليق) و(التّطبيق). (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

على هذا الأساس شيّد ولد عبدي الإطارَ النظري لفرضياته المقترحة، متخذًا من مسار الشعر الموريتاني في القرن العشرين مختبرًا للتجريب، ليختار ثلاثة متون يشكل كل واحد منها نسقًا شعريًا، يُضمر نسقًا نظريًا هو بمثابة إطاره المرجعي، الذي يوجهه ويتحكم فيه، ويتبادل وإياه التأثير والتأثر. وتلك الأنساق هي: (النسق التقليدي)، و(النسق التجديدي)، و(النسق الحداثي). مطوقًا كل نسق؛ توصيفًا وتسميةً، مقتنصًا سماته النسقية من خلال بنيته الإيقاعية في بُعدَيْها الخارجي والداخلي، مترسمًا علاقتَه بالشاهد الأمثل، ونمطَ تلقيه الجمعي، ونوع القراءة التي عادةً ما تمارس عليه. لينتهي إلى رسم خريطة الأنساق الشعرية الموريتانية في أبهى تعالقاتها وَفْقَ نموذج يُنبِئ عن ذكائه المنهجي الحاد، وهو كالآتي: (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

النسق الشعري	النسق المعرفي	الشاهد الأمثل	التلقي الجمعي	نمط القراءة
التقليدية	الدّيني	المماثلة	التأثيم	التحقيق
التجديد	الثقافي	المشابهة	التعظيم	التعليق
الحداثة	الاجتماعي	المخالفة	التذميم	التطبيق

وهو يرسمُ حدودَ النَّسق التقليدي بكونه «يرتد في بنيته الإيقاعية إلى الأبحر ذاتها التي كانتْ مهيمنة في القرن الأول للهجرة، وإلى المفاهيم البديعية التي كانتْ تقعِّد بلاغة الخطاب الشعري لدى نقاد عصر التدوين، وهو ما ينسجم والنسقَ المعرفي، الذي يرتد إلى فهم ديني مخصوص، قائم على الإيمان بأنَّ العالَمَ النصي يصوغ العالَمَ الواقعي، وعليه فلا غرابة في الانطلاق من

القرن الهجري الأول، وتنزيل نصوصه على الواقع المجتمعي والنصي في القرن العشرين. من هنا كان الوعي الكتابي لدى هذا النسق قائمًا على طلب المماثلة مع الشاهد الشعري الأمثل، وكان التلقي الجمعي تحكمه المراسمُ الفقهية المُقْصرة للشعر على (أبواب الخير)، وإذا خرج عنها فقولُه وسماعُه إثمٌ تنبغي التوبةُ منه. ولأنَّ نصوص هذا النسق الشعري تتلبسُ التراثَ بناءً ورؤيةً، فقد كان مَشغَلُ الخطاب النقدي القيامَ بتحقيقها، محكومًا في ذلك بمنهاجية قائمة على تأصيل الشاعر وتنسيب النص في التراث الشعري العربي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

ويحدد النسق التجديدي بأنَّ «بنيته الإيقاعية تقف على الأعراف بين المسايرة والمغايرة، محكومًا في ذلك بنسق نظري قائم على رؤية ثقافية تنطلق من الحاضر في اتجاه الماضي، ومن الواقع المستلب في اتجاه الهوية التراثية، تحقيقًا لمبدأ قياس الشاهد على الغائب؛ لذلك كانت علاقة الوعي الكتابي لدى شعرائه بالشاهد الأمثل تتحكم فيها آلية المشابهة، وكان التلقي الجمعي يوجهه مبدأ تعظيم الشعر والشعراء، وكان الخطاب النقدي مقتصرًا على (التعليق) على النصوص وَفْقَ إستراتيجية خطابية». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

كما يُسمَّى النسق الحداثي بأنَّه «يتأسس على بنية إيقاعية ترتد في بعدها المرجعي إلى التحولات الكبيرة التي شهدها النسق الاجتماعي، من هنا كان مسار الزمن لديه يمتدُّ من الحاضر إلى المستقبل، وكان الوعي الكتابي لدى شعرائه، قائمًا على مخالفة الشاهد التراثي الأمثل، وإنْ ولَّى وجهه شطر أنموذج إبداعي آخر، متمثلًا في منجز الحداثة الشعرية العربية في بداياتها الأولى، كما هي عند الرّواد، وكان تلقيه الجمعي تتحكم فيه آلية (التّذميم)، لأنَّه شعرٌ نقض عهدية الشعر كما عرفه المجتمع الموريتاني، وغيّر رسمَه ونسَخَ سنّتَه، فمن الطبيعي والحال تلك أنْ ينظر إليه المجتمعُ نظرة ذمٍ وتبخيس، وكان الخطاب النقدي الذي اشتغل على نصوصه يتوسل (التطبيق) لمناهج النقد الحديث، مدفوعًا بالرغبة في (توريد) تلك المناهج إلى موريتانيا و(تصدير) النصوص الشعرية الموريتانية إلى العالم العربي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

ورغم التمايز الذي رسمه الباحث بين هذه الأنساق، إلَّا أنَّه ما فتئ يؤكِّد أنَّ الأمر لا يعني البتة نقاء كل نسق وانتفاءَه من خصائص أخيه، وإنَّما يعني كون تلك السمات هي المنادية على نفسها فيه، ممَّا خوَّل له عزلَها وتعيينَها؛ لأنَّ الأنساق حسب تعبيره «رماديةُ الحدود، تتداخل ويهاجر بعضها في بعض، وحسبُك أنَّ ذاك هو ما يكسبها الفاعلية والدينامية والانفتاح». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١١).

النقد الثقافي والنقد الأدبي

يقرّ الدكتور عبدالله الغذامي بالمنجزات الكبيرة التي حققتها مسيرةُ النقد الأدبي عربيًا على مستوى رصد أدبيّة الأدب وتحليلها فنيًّا، حيث «أدّى النقد الأدبي دورًا مهمًا في الوقوف على (جماليات) النصوص، وفي تدريبنا على تذوق الجمالي وتقبل الجميل النصوصي، ولكن النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا وبسببه، أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي، وظلت العيوب النسقية تتنامى، متوسلة بالجمالي، الشعري والبلاغي، حتى صارتْ نموذجًا سلوكيًا يتحكم فينا ذهنيًا وعمليًّا، وحتى صارتْ نماذجنا الراقية – بلاغيًا– هي مصادر الخلل النسقي». (عبدالله الغذامي، ٢٠٠٥م. ص ٧).

من هنا يتقدم الغذامي ليطرح سؤاله الذي أنبنت عليه رؤيته للنقد الثقافي عربيًا: «هل هناك أنساق ثقافية تسربت من الشعر وبالشعر لتؤسس لسلوك غير إنساني وغير ديمقراطي وكانت فكرة (الفحل) وفكرة (النسق الشعري) وراء ترسيخهما، ومن ثَـم كانت الثقافة –بما أنَّ أهم ما فيها هو الشعر– وراء شعرنة الذات وشعرنة القيم؟». (عبدالله الغذامي، ٢٠٠٥م. ص ٧).

ويجد النقد الثقافي مشروعيته لدراسة النص الأدبي في تأسيس الكثير من أصوله النظرية على أطروحات منظري النقد الأدبي المعاصر، وهو يحاور في كثير من تجلياته «نقد ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية حتى تأتي مشروعات نقدية متنوعة تستخدم أدوات النقد في مجالات أعمق وأعرض من مجرد الأدبيّة، ما وراء الأدبية». (عبدالله الغذامي، ٢٠٠٥م. ص ١٤).

ويساير الدكتور محمد ولد عبدي هذه الرؤية الغذاميّة، إذْ يؤكِّد أنَّ الدراسات النقدية، ظلت «تنطلق من النص بوصفه مجتلىً أدبيًا غايته تحقيق الجمال، والإمتاع والمؤانسة، وعلى الناقد الأدبي الكشف عمَّا فيه من ذلك الجمال، إلَّا أنَّه في العقود الأخيرة من القرن العشرين، ونتيجة لعوامل عالمية عديدة، عرفت الدراسات النقدية تحولات كبيرةً، انتقل بموجبها النظر إلى النص الأدبي من فضائه الفني الضَّيق إلى فضاء ثقافي أوسع». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٤– ١٥). وهذا الفضاء هو ما رسم زي سميث ملامحه كالآتي: (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٥).

- إنَّه من غير الملائم دراسة النصوص الأدبية بمعزل عن سياقاتها (أيْ: الفاعلين والثقافة والمجتمع)، بل إنَّ تشييد أو إعادة تشييد الظاهرة الأدبية علميًا بالمعنى الواسع، يتطلب صياغة شبكة من العناصر المتفاعلة أيْ: النسق.

- إنَّـه لا يمكن النظر إلى المعنى على أنَّه ملكية أنطولوجية للنصوص الأدبية؛ لأنَّه ينشأ عبر نوع من

التفاعل بين النص والقارئ في سياقات اجتماعية ثقافية.

- إنَّ مفاهيم الأدب تنبثق من سيرورات اجتماعية ثقافية معقدة للتقنين (canonisation) والتنشئة الاجتماعية والتوجيه الإيديولوجي.

وبناء على الرؤية السابقة رسم ولد عبدي ملامح مشروعه النقدي لقراءة الثقافة الموريتانية، والكشف عن أبرز أنساقها المهيمنة من بوابة الشعر.

موت النقد الأدبي

لا جدال في جدوائية مسيرة النقد الأدبي العامرة عبر العصور الثقافية الأدبية، فقد ظل هذا النقد هو الموجَّه للنصوص والكاشف الحقيقي عن خفاياها وأسرارها الجمالية، بيد أنَّ رواد النقد الثقافي على المستوى العربي انطلقوا من فرضية أنَّ النقد الأدبي قد استنفد طاقته في التحليل الجمالي، وأنَّه من الضروري أنْ نبحث له عن بديل أكثر جدوائية، من هنا أعلن الغذامي عن موت النقد الأدبي وقد قالها بشكل صريح: «أنا أرى أنَّ النقد الأدبي كما نعهده، وبمدارسه القديمة والحديثة، قد بلغ حدّ النضج أو سن اليأس حتى لم يعد بقادر على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي نشهده الآن عالميًا وعربيًا، بما أننا جزء من العالم متأثرون به ومنفعلون بمتغيراته». (عبدالله الغذامي وعبدالنبي اصطيف، ٢٠٠٤م. ص ١٢).

وهو يرى أنَّ أبرز ثغرات النقد الأدبي التي لم يستطع تجاوزها هي التزامه «بالنظر إلى النص الأدبي بوصفه قيمة جمالية؛ يجري دائمًا السعي لكشف هذا البعد الجمالي، وتبرير أي فعل للنص مهما كان، تحت مبدأ الأصل الجمالي، ممَّا جعل (الجمال) منتجًا بلاغيًا محتَكَرًا، وصار للجمالي شرط مؤسساتي، يصنعه السيد الشاعر ويقوم الفعل النقدي بعمليات التسويق والتعميم». (عبدالله الغذامي، ٢٠٠٥م. ص ١٤).

وهو يحاول أحيانًا التخفيف من حدة نبرته تجاه هذا النهج مع تمسكه الصارم بدعوته لاعتماد النقد الثقافي بديلًا للنقد الأدبي، فيقول: «ليس القصد هو إلغاء المنجز النقدي الأدبي، وإنَّما الهدف هو في تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره (وتسويقه) بغض النظر عن عيوبه النسقية إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه، وهذا يقتضي إجراء تحويل في المنظومة المصطلحية». (عبدالله الغذامي، ٢٠٠٥م. ص ٨).

وقد حاصرت الغذامي مجموعة من الأسئلة الفارقة في طرحه حول ما أسماه موت النقد الأدبي، ليعود في بعض أبحاثه إلى التأكيد على أنَّ «النقد الثقافي لن يكون إلغاء منهجيًا للنقد الأدبي، بل إنَّه سيعتمد اعتمادًا جوهريًا على المنجز المنهجي الإجرائي للنقد الأدبي، وهذه أولى الحقائق المنهجية التي يجب القطع بها». (عبدالله الغذامي وعبدالنبي اصطيف، ٢٠٠٤م. ص٢١).

ويساير الدكتور ولد عبدي هذا الطرح فيعلن أنَّ مشروعه لدراسة الشعر الموريتاني ينطلق من «أسئلة متعلقة بكينونة النص الشعري ذاته: أهو وليد تجربة فردية كما كانت تذهب إلى ذلك بعض القراءات السياقية أم هو تحقّق نسقي لنظام معرفي يتبادل معه التأثير والتأثّر؟ وهي أسئلة تتطلّبُ الإجابة عنها الانتقالَ من موقع التساؤل عن الجمال في الشعر إلى التساؤل عن المعرفة فيه، ومن ثمَّ ربط سؤال الأدب بسؤال الثقافة. إلى أي حدٍّ كان الخطاب الشعري الموريتاني تصريفًا جماليًا لأنساق معرفية متحكمة في اللاشعور الجمعي؟ وإلى أيِّ مدىً تحكمت تلك الأنساق في بنية ذلك الخطاب؟ ثم أليست تلك الأنساق بما تتّسم به من سلطة وتسلط وهيمنة واستحكام هي وليدة سياقات تاريخية واجتماعية وثقافية وأدبية أكسبتها سماتها الفوقية وأعطتها القدرة على التسرب لا إلى الخطابات الثقافية وفي صدارتها الشعر، وحسب، وإنَّما أكثر من ذلك إلى السلوك الفردي والجماعي سواء أكان سياسيًا أم اجتماعيًا ممَّا عطَّل مشروع الدولة الوطنية وأعاق ترسيخ مفهومها بالرغم من مرور ما يقارب نصف قرن من الاستقلال الوطني؟». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٧).

وهو يرى أنَّ هذه الأسئلة لم يكن بالمقدور الإجابة عنها «بالاتكاء على منجز النقد الأدبي بمفرده، بالرغم ممَّا لآلياته وطرائقه التحليلية من مرونة وفاعلية، وإنَّما تجاوزناه إلى غيره من المناهج، وخصوصًا الدراسات الثقافية والنقد الثقافي منها على الخصوص، غير قائلين، بتعارض مجال الأخير مع الأول ولا بتجاوزه إيَّاه، كما ذهب إلى ذلك غيرنا[١] ، إذْ المشكلة الحقيقية ليست مشكلة (مجال) الدراسة (نقد أدبي- نقد ثقافي) ولكنَّها مسألة نوعية رؤية المجال وكيفية تطبيقها». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٧). وبهذا يميل الدكتور ولد عبدي في الأخير إلى نظرة تصالحية مع النقد الأدبي مع حرصه الباذخ على استثمار منجزات النقد الثقافي والاستعانة بأسسه الفلسفية والفكرية والتحليلية[٢].

---

(١) يقصد هنا الدكتور عبدالله الغذامي، وهو يقول في هذا المنحى: «هو الرأي الذي يذهب إليه الدكتور عبدالله الغذامي الذي يعتبر رائد النقد الثقافي في الثقافة العربية، من خلال كتابه (النقد الثقافي- قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، ومن الجدير بالذكر أنَّنا استفدنا من هذا الكتاب ما لم نستفد من غيره، وكان بحق الإطار المرجعي الذي يوجهنا في كثير ممَّا ذهبنا إليه، لذا وجب التنويه»، انظر: (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٧).

(٢) هذه النظرة التصالحيّة مع النقد الأدبي نجد صداها في اشتغال الدكتور ولد عبدي سابقا بأطروحات النقد الأدبي لاكتشاف جماليات النصوص الشعرية الموريتانية، وهو اشتغال ترجمته بوضوح دراستاه: (ما بعد المليون شاعر: مدخل لقراءة الشعر الموريتاني المعاصر، ط١، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠٠٠م.)، و(تفكيكات: مقاربة نقدية لنصوص إماراتية، ط١، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ٢٠٠٥م.)

النســـق

لقد أخذ مفهومُ (النسق) مركزيته الفاعلة في الدراسات الثقافية والأدبية المعاصرة، وهو يحيل إلى «مواضعة (اجتماعية، دينية، أخلاقية، أستيتيقية...) تفرضها في لحظة معينة من تطورها، الوضعيةُ الاجتماعية، التي يقبلها ضمنيًا المؤلفُ وجمهورُه، وهكذا يكون أفق النصوص المجردة والإنجازات الفردية هو (النص الثقافي)». (عبدالفتاح كيليطو، ٢٠٠١م. ص ٨).

لذا فقد أضاف الغذامي إلى عناصر الاتصال الست التي إجترحها رومان ياكبسون ما يسميه بـ «العنصر السابع»، (عبدالله الغذامي وعبدالنبي اصطيف، ٢٠٠٤م. ص ٢٥). وهو يقصد به « العنصر النسقي، ولهذا العنصر وظيفة لا توفرها أيٌّ من العناصر الستّ الأصلية، إذْ به نكشف البعد النسقي في الخطاب وفي الرسالة اللغوية، وعليه تقوم منظومة من المصطلحات والتصورات نعتمد عليها في بناء التصور النظري والمنهجي لمشروع النقد الثقافي». (عبدالله الغذامي وعبدالنبي اصطيف، ٢٠٠٤م. ص ٢٦).

وهو يسائل التراثَ الأدبيّ العربي بعيدًا عن سحنته الجمالية الطاغية ليستشف ما وراء اللغة وما خلف السطور من تجليات للنسق المهيمن في الوجدان العربي، مسجلًا بوضوح «أنَّ في الخطاب الأدبي والشعري تحديدًا، قيمًا نسقيةً مضمرة، تتسبب في التأسيس لنسق ثقافي مهيمن ظلت الثقافة العربية تعاني منه على مدى ما زال قائمًا، ظل هذا النسق غير منقود ولا مكشوف بسبب توسله بالجمالي الأدبي، وبسبب عمى النقد الأدبي عن كشفه، مذ انشغل النقد الأدبي بالجمالي وشروطه، أو عيوب الجمالي، ولم ينشغل بالأنساق المضمرة». (عبدالله الغذامي وعبدالنبي اصطيف، ٢٠٠٤م. ص ٣١).

في ضوء ما سبق، طرح الغذامي -بكل جرأة-فكرة أنَّ «الشاعر لم يصنع نفسه، وإنَّما هو وليد لثقافة، والنسق حينئذ هو مضمر ثقافي لا بدَّ من كشفه والبحث عن علاماته، ولذا وجدنا الحداثيَ رجعيًّا، ووجدنا الحداثةَ العربية ضحيةً نسقيّة لا لوعي الأفراد، وإنَّما لهيمنة النسق عبر بقائه في المضمر، مع عدم البحث عنه وكشفه وتعرف مواقع إخفائه». (عبدالله الغذامي وعبدالنبي اصطيف، ٢٠٠٤م. ص ٤٧).

ويفترض ولد عبدي في حفرياته النسقية حول الثقافة الموريتانية وجود ثلاثة أنساق معرفية تشكل بنية العقل الموريتاني، هي: النسق الديني، والنسق الثقافي، والنسق الاجتماعي، متتبعًا سيرورة تشكلها التاريخي وانبنائها الرمزي، عبر حقبٍ ثلاث، قُسِّم إليها التاريخ الموريتاني، وهي:

١- حقبة التأسيس والتأصيل.
٢- حقبة الاستعمار وإرادة التحصين.
٣- حقبة الدولة الوطنية وإشكاليات التحديث.

وقد سعى جاهدًا للكشف «عن طرائق تصريف الخطاب الشعري لتلك الأنساق، وأساليبه في تمثلها وتمثيلها، وكيفية تراشحه وتراسله معها، وذلك من خلال أعتى بناه وأكثرها صلابةً، وضبطًا ووضوحًا، أعني البنية الإيقاعية، لما لتلك البنية من مكانة فارقة في تمييز الأنساق الشعرية على المستويين الفني والدلالي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ٢٠-٢١). وقد سعى إلى تفكيك الخطاب الشعري الموريتاني موزعًا إيَّاه إلى أنساق شعرية ثلاثة، يهيمن على كل واحد منها نسق معرفي محدد وفقًا لما يأتي:

١ - النسق التقليدي ويهيمن عليه النسق الديني.

٢ - النسق التجديدي ويهيمن عليه النسق الثقافي.

٣ - النسق الحداثي ويهيمن عليه النسق الاجتماعي.

وهو يقر في ذات الآن «أنَّ هيمنة نسق معرفي معين على نسق شعري ما، لا تعني البتة انتفاء خصائص النسقين المعرفيين الآخرين فيه، وإنَّما تعني كون خصائص ذلك النسق هي المنادية على نفسها فيه، لأنَّ الأنساق، كما هو معلوم، شديدة التراسل والتقاطع و التراشح، تمامًا كما المتون ذاتها رمادية الحدود، تتداخل ويهاجر بعضها في بعض، مما ينفي خاصية النقاء النصي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ٢١).

وهو يحدد متن الدراسة بناء على حدود الأنساق التي رسمها سابقًا، حيث يقول: «ولقد اعتمدنا متنًا شعريًا راعينا فيه انتظام قوانين النصوص ونسقيتها واتساع قاعدة تلقيها قبولًا أو رفضًا، فكان اختيارنا لستة شعراء، يشكلون نخبة بالمعنى السوسيولوجي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ٢١).

لقد غيَّر ولد عبدي وجهته من القراءة السياقية المعتمدة على ما حول النص إلى ما يسميه بـ (القراءة النسقية) التي تغوص في عوالم النص من الداخل لرصد ما وراء اللغة، وتبين ما خلف السطور: «لقد درجت القراءة السياقية في أغلب تجلياتها على التوجه صوب (الخارج) ومحاورة حقوله المختلفة مستفيدةً في ذلك من معارف شتّى، يُعززها البحث الفلسفي، والتاريخي، والاجتماعي، والنفسي، تاركة في الغالب باب التذوق والتأثر مفتوحًا على الداخل، ساعية إلى عدم تغييب النّص كليّة في ركام الفرضيات والتصورات القبلية، في حين يممتِ القراءة النسقية وجهها شطر (الداخل)، وأوكلت لنفسها مهمة الغوص في مجاهل عالم (مغلق) تقّر بوجوده واستقلاله، معطية إيَّاه سمات الكائن الحي ذي الخصائص المميزة، والتي تجعل منه ذاتًا تنعم بالشرعية والحياة، مولدًا ونشأة ومماتًا، يتحمل القارئ/ الناقد مسؤولية الإفصاح عن كنهها في كل مرحلة من مراحل حياة تلك (الذات)». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص١٤-١٥).

وهو يقرُّ بأنَّ تاريخ النقد الأدبي الحديث ظل «محكومًا في مساره بجدلية التنابذ والتجابذ بين تينك القراءتين، طورًا تتدابران حدّ القطيعة مشكلة كل منهما قطبًا يحسب حماهُ المجالَ الأوحد الذي يحقق فيه النص دلالته وتارة تتراسلان فتستعير إحداهما من الأخرى ما به تُسند وجودَها وتُوصل كيانَها في مسلك توفيقي لا يكاد عن منطقه يُبين، وأحيانًا تتقاربان حدَّ التماهي على أرضية تكوينية يتساند فيها الداخل والخارج، أو على مُتكأٍ سيميولوجي تتعاضد فيه بنية أداء النص PHENO-TEXTE ببنية نشوئه GENO-TEXE أو يتوحدان في أفق يجد فيه القارئ متسعًا للتأويل». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٤-١٥).

هذه القراءة هي التي غيَّرت طبيعة تعامل الباحث مع التاريخ الموريتاني، وجعلته يسلك طريقًا مغايرًا لما سار عليه كثير من الباحثين ممَّن سبقوه إلى قراءة هذا المجال من زوايا أخرى، حيث كان تعامل ولد عبدي مع التاريخ بوصفه «نصًا سرديًا خاضعًا لظروفٍ ومصالح اجتماعية وثقافية متحكمة في إنتاجه وتلقيه، فأعدنا قراءته تأريخًا يتغيّا رصد ميلاد الأنساق المعرفية وسيرورة تشكلها ضمن محاضن ثقافية وأدبية عملت على تأصيلها وإدامة فعلها في اللاشعور الجمعي، الأمر الذي تتبعنا تحققاته في الخطاب الشعري، منطلقين في ذلك من فرضية رئيسة تقول بالتراسل والتراشح بين الأنساق المعرفية وسياقاتها من جهة، وبينها و الأنساق الشعرية كتحققات نصية يكون انتاجها وتلقيها استجابة لسلطان تلك الأنساق». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٦). فيما كان تعامل كثير من الباحثين، في تقديره، مسكونًا بالحنين إلى «(جواهر) تاريخية (فَذَةِ الأصالة)، ساعين إلى ترميمها أو موضعتها في مكان لا يرقى إليه التجريح». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٦). وقد عمل ولد عبدي على مناقشة الكثير من المسلمات والأطروحات التاريخية المتداولة في أدبيات الثقافة الموريتانية، في مسار تحكمه الرغبة الجامحة في الغربلة والتمحيص لاكتشاف الأنساق المهيمنة والبنيات المتحكمة.

السياق

يعدُّ السياق أحد المفاهيم المعبأة بحمولة رمزية لها إحالاتها الخاصة في كثير من الحقول المعرفية الثّرة، وهو يزداد ثراء وحيوية حين نربطه بفضاء النص الأدبي، إذْ يحضر السياق بعمق بوصفه «أداة إجرائية يمكنها أنْ توسع من دائرة فهم النص الأدبي وتأويله وإخراجه إلى أفق أوسع، وتكثف أسئلة الكتابة وشروط التواصل، وبناءً عليه تضمن انسجامه والتواصل معه بحيث لا تبقى في حدود خلق علاقة محددة مع الموضوع، بل نتجاوز ذلك إلى الرغبة العميقة في استكناه كل الأطراف المساهمة في عملية الإبداع والتلقي». (علي آيت أوشان، ٢٠٠٠م. ص ١٨). وهو من هذا المنظور

«يلعب دورًا أساسيًا في تحديد المعنى وفهم الملفوظات خاصة إذا أخذنا معناه الواسع؛ إذْ يستدعي ما هو اجتماعي، وتاريخي، وثقافي، ونفسي». (علي آيت أوشان، ٢٠٠٠م. ص ١٨).

وتُعطي المعاجم الغربية تعريفات عدة لمفهوم السياق، وهي تعريفات تتضارب وتتداخل وتتمايز تبعًا لشحناتها الدلالية والرمزية، ويعتمد الدكتور ولد عبدي التعريف الذي تبناه الناقد المغربي محمد مفتاح حول السياق بوصفه «ما كان مؤلفًا من جملة عناصر أو أجزاء تترابط فيما بينها وتتعالق لتكون تنظيمًا هادفًا إلى غاية» (محمد مفتاح وآخرون، د. ت. ص ٤٨)، معتمدًا جملة الخصائص التي ينبغي أنْ تتوفر للنسق حتى يمكن وصفه بالنسقية، وهذه الخصائص هي: (محمد مفتاح وآخرون، د. ت. ص ٤٨).

١- حدود قارة نسبيًا يمكن التعرف إليه بها.

٢- بنية داخلية مكونة من عدّة عناصر منتظمة وتحيل على نفسها.

٣- نسق خطابٍ عضوي منفتح ومتغير ومتحول ويتوجه نحو التعقيد الذاتي غير أنَّه يحافظ، مع ذلك، على ثابت أو ثوابت.

٤- كلَّما كثر حذف أحد عناصره قلَّ تأثيره وإقناعه.

٥- يشبع حاجات اجتماعية لا يشبعها نسق غيره.

ومن خلال هذه الخصائص يرى ولد عبدي أنَّه «يمكن عزل النسق وتعيينه، ضمن الحقل الذي تجري دراسته فيه، وإذ نحن ندرس الأنساق المعرفية (النسق الديني، الاجتماعي، الثقافي) والأنساق الشعرية، باعتبار الأولى تؤثر في الثانية وتوجهها، والثانية تديم الأولى وتُسرّبها في الجسد الاجتماعي». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٤).

ويسوغ ولد عبدي جمعه في عنوان دراسته بين السياق والنسق، بأنَّ «النسق ليس متعاليًا ولا مفارقًا للسيّاقات التاريخية، فكما أنَّه يؤثر فيها، فإنَّه يتأثر بها، وقد يتحوَّر هذا النّسق بتأثير هذه السياقات، وقد تتحرّر المؤسّسات والممارسات الاجتماعية والسياسية والأدبية من هيمنة (النّسق الثقافي) السائد، غير أنَّ هذا القول يطرح على الباحث إشكالات منهاجية معقدة، إذْ كيف يمكن الجمع بين المنهج السياقي والمنهج النسقي، وهما منهجان كثيرًا ما تدابرا وتنافرا في الدّرس النقدي الأدبي الحديث؟». (محمد ولد عبدي، ٢٠٠٩م. ص ١٦).

قراءة ومناقشة

لن نقف هنا لمساءلة المنجز النقدي الغذامي، إذْ كتب الكثير من الأعمال في هذا المجال من قبل جملة من النقاد والباحثين العرب مختلفي المشارب والدوافع، وقد وُجِّهتْ إلى تطبيقاته الكثير من الملاحظات النقدية

المعمقة[١]، ولكنَّنا سنقف هنا عند عتبات النموذج الموريتاني، لنفصح عن بعض الهواجس والإشكالات التي عنت لنا ونحن نفحص دراسة الدكتور محمد ولد عبدي السالفة الذكر؛ لنؤطرها في سياقها الثقافي والمعرفي الذي كتبت فيه، محاولين مقاربة مدى إضافتها لمشروع النقد الثقافي العربي.

لقد قامت دراسة الناقد ولد عبدي على بناء نظري ومنهجي صلب ومتماسك، ولا غروَ؛ فالباحث احترف الكتابة النقدية على مدى عقود، كما أنَّ الدراسة منجزة، في أصلها الأول، ضمن سياق أكاديمي محكم، وهو ما منحها مزيدًا من الضبط على مستوى الرؤية والمنهج والتأصيل النظري، كما أنَّها استغرقت من الباحث حينًا من الزمن ممَّا جعل أفكارها تختمر لتجد الوقت الكافي للنضج، إضافة إلى ذلك وجدت الدراسة تميزها في جانبين:

أ- الطرافة والجدة: حيث اشتغل الباحث بأساليب وآليات جديدة مغايرة لما درج عليه أغلب الباحثين الموريتانيين، كما تجنبت دراسته التسرع في الاستنتاج والضحالة المعرفية.

ب- امتلاك المشروع المعرفي: فالمتابع للدراسة يكتشف أنَّ الباحث يعلن عن مشروع قرائيّ موسع لمقاربة الثقافة الموريتانية بشكل عام عبر سلسلة من الحفريات المعرفية المعمقة، وهو مشروع تعد هذه الدراسة ذروته المعرفية.

وقد وجد الباحث في الثقافة الموريتانية مجالًا رحبًا للتحليل والمناقشة، وذلك لتنوعها وتناقضاتها المهيمنة ممَّا وفَّر له مدًى واسعًا لاستعراض النظريات والتساؤلات الفلسفية، كما أنَّ خصوبتها المعرفية والثقافية والأدبية وفَّرتْ له النماذج المثلى لاستشهاده، وتبرير ما ذهب إليه من فرضيات وآراء، وهو مسار مناسب لتطبيقات النقد الثقافي بوصفه نشاطًا فكريًا يتخذ من الثقافة الشمولية موضوعًا لبحثه وتفكيره، ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها. (ميجان الرويلي، وسعد البازعي، ٢٠٠٧م. ص ٣٠٥).

إنَّها دراسة تحاور حقولًا معرفية شتّى، وفي مقدمتها (الأدب، والتاريخ، والثقافة...)، وهو في ضوء ذلك؛ مفتون بماورائيات النصوص وخلفياتها المعرفية، إذْ النصوص كما يقول إدوارد سعيد: «دنيوية،

(١) أبرز الملاحظات النقدية التي وُجّهَت لتطبيقات الغذامي للنقد الثقافي على المستوى العربي، جاءت على ثلاثة مستويات: «الأول في مقدار التعميمية في قراءة الأنساق التي يتحدث عنها، وهي أنساق محصورة في الجانب السلبي (تحول المديح إلى استجداء ونفاق، والفخر إلى تضخم للذات، الخ...)؛ والثاني، بمحدودية الأمثلة، وانحصارها في الأدب تقريبًا، والشعر بشكل خاص؛ أمَّا الثالث فيتمثل في غياب المقارنة الثقافية أو استحضار التجارب الثقافية لمجتمعات مختلفة أو حضارات مختلفة... ». انظر: (ميجان الرويلي، وسعد البازعي، ٢٠٠٧م. ص ٣١٠).

وهي أحداثٌ إلى حد ما، وهي فوق كل هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية، وقسط بالتأكيد من اللحظات التاريخية التي احتلتْ مكانها فيها وفسرتها حتى حين يبدو عليها التنكر لذلك كله». (إدوارد سعيد، ٢٠٠٠م. ص٧).

وتبقى أهم الملاحظات التي يمكن إيرادها حول المشروع العبدي، في تقديرنا هي:[١]

- تركيز الدراسة على متن الشعر بوصفه البوابة المعرفية المثلى للثقافة الموريتانية، وهو ما يجعل تعميم كثير من استنتاجاتها على البنية الثقافية الموريتانية لا يخلو من الإجحاف، وصحيح أنَّ الشعر ظل فاعلًا في الثقافة الموريتانية وموجها لأطرها المعرفية والثقافية، وحتى التاريخية، إلى حدِّ أنَّ البلاد عرفت ببلاد المليون شاعر[٢]، وهي مقولة تختزن هوس الموريتانيين بالشعر، إلَّا أنَّ للثقافة الموريتانية أيضًا مداخل معرفية أخرى لها أهميتها المعرفية القصوى، والتي لا يمكن وضع أيَّ مقاربة معمقة للمشغل الثقافي بدون دراسة معمقة لنصوصها، وفي مقدمة هذه الحقول، (الكتابات الفقهية: الفتاوى والنوازل، النثر الأدبي: المقامات والرسائل، كتب التاريخ والحوليات، المجتمع؛ بمروياته الشعبية ومحكياته الميثولوجية...).

- عدم توقف الدراسة عند رصد كثير من العيوب النسقية في الثقافة الموريتانية التي تختبئ وراء النصوص الشعرية، وهو مشغل قامتْ عليه أغلب دراسات النقد الثقافي العربي، خصوصًا مع المنجز الغذامي، وهي عيوب تختفي وراء حجاب الجمالي، وتفعل فعلها في الوعي الوجداني المجتمعي، وترسخ أحيانًا مجموعة من القيم المغايرة لروح المجتمع وما يسعى إليه من مساواة ووئام وعدالة.

- تُعيد الدراسة بقوة جدليّة المركز والأطراف كما طرحتها من قبل دراسات الغذامي وريادته لمشروع النقد الثقافي العربي، حيث كسرت تلك الريادة حاجزَ المركزية المشرقية التي رسمت صورة الثقافة العربية في منطقة مصر والعراق وبلاد الشام، فيما يظل صوت الجزيرة العربية وشمال إفريقيا مغيّبًا عن الوعي العربي أو «لا مُفَكّرًا فيه» (محمد بنيس، ٢٠٠١م. ص ٨)، وكأنَّه يراد للثقافة العربية أنْ تكون حكرًا على مناطق عربية محددة.

كانت تلك مقاربة مركّزة لمشروع النقد الثقافي الموريتاني كما رسمته دراسة الدكتور محمد ولد عبدي

---

(١) نسبة إلى الدكتور محمد ولد عبدي.

(٢) هي مقولة ثقافية أطلقها بعض الكتاب العرب على موريتانيا انبهارًا باهتمام الموريتانيين بالشعر، وقد ظهرت لأول مرة على صفحات مجلة (العربي) الكويتية في ستينيات القرن المنصرم، في تحقيق أجرته حينها عن موريتانيا، حيث كانت بعثة المجلة في تجولها بين المدن الموريتانية تصادف كثيرًا من سهرات السمر الأدبي والمساجلات الشعرية، ممَّا جعلهم يطلقون على موريتانيا لقب (بلد المليون شاعر).

(السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية: الشعر نموذجًا/ مقاربة نسقية)، وهي دراسة تحمل آفاقا قرائية شتى، أسهمت في تشريح كثير من نصوص الثقافة الموريتانية وقراءة ماورائياتها برويّة وعمق.

المصادر والمراجع

أوشان؛ علي آيت: *السياق والنص الشعري: من البنية إلى القراءة*، ط١، الدار البيضاء، دار الثقافة، ٢٠٠٠م.

الباحث، وآخرون: *مرايا الحلم والكتابة: قراءات في أعمال الدكتور محمد ولد عبدي*، ط١، مراكش، المغرب، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، ٢٠١١م.

بنيس، محمد: *الشعر العربي الحديث؛ بنياته وإبدالاتها، ج١ التقليدية*، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ٢٠٠١م.

الرويلي؛ ميجان، والبازعي؛ سعد: *دليل الناقد الأدبي*، ط٥، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م.

سعيد؛ إدوارد: *العالم والنص والناقد*، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، ط١، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م.

السماعيل؛ عبدالرحمن بن إسماعيل، وآخرون: *الغذامي الناقد: قراءات في مشروع الغذامي النقدي*، كتاب الرياض العدد (٩٧- ٩٨)، ديسمبر ٢٠٠١ - يناير ٢٠٠٢م.

الغذامي؛ عبدالله: *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية*، ط٣، بيروت – الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م.

الغذامي؛ عبدالله، واصطيف؛ عبدالنبي: *نقد ثقافي أم نقد أدبي*، ط١، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٤م.

كيليطو، عبد الفتاح: *المقامات: السرد والأنساق الثقافية*، ترجمة: عبدالكبير الشرقاوي، ط٢، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ٢٠٠١م.

مفتاح؛ محمد، وآخرون: *نظرية التلقي: إشكالات وتطبيقات*، الرباط، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٤. د. ت.

ولد عبدي؛ محمد: *السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية: الشعر نموذجًا (مقاربة نسقية)*، ط١، دمشق، سورية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م.